الفصل السابع عشر

الداء العضال (الخرافة)!

obeikandl.com

obeikandl.com

الداء العضال (الخرافة)!

يجد القصاصون في الخرافة كثيرًا مما يعجزون عن الوصول إليه بعقولهم، وقابلية الأجواء الدينية لتشرب الخرافة قوية جدًّا، ولا تقارن بأي شيء آخر، وسبب ذلك ارتباط مصدر الدين بالشأن الإلهي الأعلى والوحي وكل ذلك من علم الغيب، والله وحده هو عالم الغيب، فلا يظهر على غيبه أحدًا، ومروجو الخرافات لا يستطيعون بذل جهد الفلاسفة والمنطقيين في البحث والتحري، ولا يقبلون الفشل كما قبلوه، فتكون الخرافة هي المخرج الأسهل والجواب الأيسر، ولو تأملت جملة ما كتب في علم المنطق والفلسفة منذ عصر اليونان إلى يومنا هذا لوجدت أن الكل يحاول ملامسة حاجز رفيع منيع يفصل بين عالم الغيب المجهول وعالم الشهادة المعلوم، هذا الحاجز، وإن كان رفيعًا كما يبدو، فهو في الحقيقة جدارهائل يستحيل اختراقه في الدنيا من قبل أي مخلوق وفق النواميس الكونية التي تطبعت في عالم الوجود الحالي، وأخذ الإنسان نصيبه المفصل عليه منها، وقصر قصورًا مطلقًا عن الباقي، أما الغيب فليس من شأن الإنسان بل هو لله القائل: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٦- ٢٧].

فجوة صغيرة جدًّا جدًّا من الغيب شاء الخالق بمشيئته وإرادته واختياره، أن يطلع عليها بعض الرسل تثبيتًا لهم ليبلغوا قومهم ما أرسل إليهم، ولأنهم الصديقون فقد أخبروا قومهم، وصدقهم الصديقون، وتصديق خبر السماء لم يكن أبدًا مستعصيًا على قبول وفهم واستيعاب العقلاء المؤمنين بوجود الله تعالى على مر التاريخ، وفي الآيات التي وردت والمعجزات التي جاء بها الأنبياء الكفاية في إقامة الحجة على قومهم، وخطاب القرآن واضح ميسر لمن بحث عن الحق والحقيقة في هذا الوجود، وهو صادق متجرد من كبرياء النفوس الأمارة بالسوء، ولا أحد سوى الله يخبرنا بهذه الحقائق وعن

وجودنا وما بعده، يقول (برندان ويلسون)[1]: «ليس سوى الله قادرًا على أن يلهمنا المعرفة المباشرة بالحقيقة المستقلة»[2].

يُحمد للفلاسفة والمنطقيين أنهم لم ينزلقوا إلى عالم الخرافة العمياء، بل نقلوا آراءهم بأمانة حتى لو لم توافق الحق والحقيقة، وهكذا هو الإنسان الذي يجب عليه الوقوف هنا معترفًا بحجمه وقدراته فهذا حدها، ولو فعلنا كل مستحيل فلن نتجاوز هذا الحد، وكل ما وصله أو ما سيصله الإنسان من معرفة وجودية يبقى محصورًا فقط في دائرة المقدر له قدرًا، ومصادر هذه المعرفة محصورة في الفطرة والاستنباط العلمي البشري والوحي الإلهي، ومن استعصى عليه واحد من هذه المصادر فغالبًا ما يعوض عنه باللجوء للخرافة والأساطير، وهنا يجب التحذير من الانزلاق مع مروجي قصص الخيال والأساطير وسقطات القصاصين الذين يبتدعون، ويروجون خيالًا عن حوادث وخوارق للمعتاد يتناقلونها، فينعكس أثرها سلبًا في الإيمان فيما بعد، فما أن يسمع الإنسان تلك القصة المثيرة للعاطفة حتى يتناغم معها، ويعيش مراحلها، ويروض إيمانه عليها، ويرضخ لها نفسيًّا، ويبني عليها قناعاته مستعجلًا، وحيث إنه لا يطول بقاء غموض الخرافة وقداستها؛ لأنه لا أصل لها، سرعان ما تنكشف الحقيقة، فتضيع هيبة تلك القصة، وتختفي كما يختفي السراب أمام ناظري من يركض وراءه، فتحصل انتكاسة خطيرة وردّة فعل سلبية جدًّا على إيمان المرء المعتمد عليها، فلا يقف عند غيابها عن منظومة تفكيره، بل يتمادى إلى التشكيك بما ثبت وحيًا عن الله والرسل ظنًّا منه أن ثبوته كان كثبوت تلك الخرافات ولا سواء.

ومن المسلم به أن هناك معجزات حقيقية حدثت للرسل، وأثبتتها الكتب السماوية، وتلقاها الناس بالقبول والرضا والإيمان والوقوف، حيث أخبرنا الله عنها، ولا نتجاوزها إلى روايات ضعيفة وقصص إسرائيلية، فقد قص القرآن علينا قصة يوسف عليه السلام مجملة، واكتفى بذلك، وأكد لنا الحقيقة في خاتمة السورة بأن العبرة تتحقق

(١) برندان ويلسون Brandon Wilson (١٩٥٣م) هو أستاذ كلية الدراسات العليا وعلوم المعلوماتية في جامعة طوكيو مؤلف كتاب (الفلسفة ببساطة) المشار إليه في مواضع عدة من هذا الكتاب.

(٢) الفلسفة ببساطة، ويلسون، (مرجع سابق)، ص٢٤٧.

فيما ذكره فقط: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١] وأخبرنا عن ناقة صالح وعصا موسى وطوفان نوح ونار النمرود، وغيرها بما نحتاج إليه، وسكت عما لا نحتاج إليه من تفاصيل، يكفينا ما أخبر الله ولا حاجة لنا بإضافات البشر وتألفيهم وإخراجهم الخاص لتلك القصص.

إن الدين الحق لا يقبل وجود الأساطير إلى جواره، فهو يزاحمها ويباعدها عن الوجود، ولا تزدهر الأسطورة إلا مع غياب دين الحق أو الجهل به؛ لأن الأسطورة تقوم على تجزئة العالم لتعليل الذهن تعليلًا لا يرقى إلى مستوى ما يعطيه الدين من نظرات شاملة ومتكاملة عن الموجودات، ولهذا نجده يحتضن العلم الصحيح، ويشجع العلماء، ويدعو إلى دراسة الطبيعة وتأملها، بل ويجعل منها طريقًا إلى الإيمان ومن ثم إلى لقاء الآخرة، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۖ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]. ولقد نبه شيخ الاسلام (ابن تيمية) إلى خطر هؤلاء الخرافيين على الدين، وذكر أنهم يتحصنون بما يسمونه (الكشف)، وهو حيلة يدعيها أهل التصوف العرفاني، عندما يتجردون من العقل والنقل، يزعمون أنها تنكشف لهم حقائق غيبية دون غيرهم، فيروونها للناس! ويدعونهم إلى التجرد من العقل والتخلص من النقل؛ لكي يطلعوا على كشفهم المزعوم[1].

وأقل من المعجزات درجة تلك الكرامات التي هي من باب النعم المفتوحة لأولياء الله، يختلف الناس في فهمها وتفسيرها، لكنهم يقعون في المبالغات في الحديث عنها إلى درجة أنك تسمع اليوم عن بعض المتأخرين من قصص الكرامات لآحاد عامة الناس ما لم تسمعه عن أحد في عصر الصحابة ﷺ، ولكن الجميل في الأمر أنه ليس واجبًا عليك أن تقتنع بحدوث تلك الكرامات، سواء كانت حقيقية أو مزعومة، بل ولا يضرك تجاهلها، فليست شرطًا لدخول الجنة، أو للنجاة من النار، والكرامة نادرة جدًّا، ولا يُقدح بمن لم تحدث معه، أما علم الغيب فهو محفوظ بقدر الله وحكمه، وهو شأن آخر تمامًا، وأمره أمر عظيم مردّه إلى الله وحده، ولن يطلع عليه أحد من الخلق في

(١) منهج ابن تيمية المعرفي، عبدالله نافع الدعجاني، تكوين، (٢٠١٤م)، ص١٧٢.

الدنيا، ولله الحكمة البالغة في تقدير الأمر ليكون غيبًا أو شهادة، ولو اطلع الناس عليه لتغير كل شيء في حياتهم: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [الأنعام:١٥٨] ولو أطلعنا الله على عالم القبور وحده وما فيه مما لا نحسه بحال، فلن تبقى نفس منفوسة على وجه الأرض إلا وآمنت إيمانًا لا نظير له في عالمنا الغافل اليوم.

*****

الحقيقة باقية والخرافة إلى زوال

إن قبول الحقيقة واحترام العقول السليمة يرفض رفضًا قاطعًا جميع أشكال الخرافة، وينبذ الأساطير الجوفاء، وهو قرار مفصلي يجب عليك اتخاذه فورًا لتحصين إيمانك بالقطيعة التامة بينك وبين عالم الخرافة والقصص الموضوعة، كفى إغراقًا واستغراقًا وترويجًا للأساطير البشرية واعتبارها مقدسة، وإن ألصقت بالنص تكلفًا، لقد لجأ الإنسان إلى الأساطير والخرافة في العصور القديمة، حيث لا يوجد علم ولا وحي يأخذ بيده للحقيقة، وكلما أضاء له الوحي طريقًا، أو فتح العلم له مسلكًا نحو الحقيقة سار إليها مهرولًا، وانكمشت عنه الخرافة بقدر ما يكتسب من المعرفة الصحيحة، وهذا سر انتشار الخرافات والأساطير التي يحاول الإنسان القديم ملء فراغ تعطشه للإجابة عن تساؤلات الوجود، أما اليوم فقد ضاق الخناق على الخرافة مع انفتاح العلم وتقدمه وتتابع الرسالات وختامها برسالة الإسلام المنسجمة مع العقول، التي ليست فقط منسجمة مع العلم الحديث، بل تحثّ عليه، وتتقدمه مسافات طويلة، والتي سيجد فيها كل إنسان سوي من الإشباع السليم ما يغني عن تلك الخرافات والأوهام الجوفاء.

وحتى في أوساط المسلمين تحاول الخرافة النفاذ الى أي مساحة ممكنة، خذ على سبيل المثال ظاهرة تناقل قصص الرعب المتكلفة التي تنسج حول حال الميت عند دفنه،

من أنه حصل له كذا وكذا، وأن القبر قد خرجت منه نار! أو أنه كلما دُفِن لفظه القبر! أو أن المسك قد فاح ريحه من القبر! أو أن ثعبانًا قد اكتشف في كفنه....! ونحو ذلك من الخرافات الباطلة التي يلجأ إليها من بلغ بهم القصور عن فهم نصوص قرآنٍ عربي مبين يخبرهم عن أشد من ذلك نعيمًا أو عذابًا بعبارات فصيحة لا لبس فيها ولا غموض، عجبًا ثم عجبًا لإنسان لا ينشرح صدره لقول الله ورسوله، فيصدقه بما ورد وصح، من خبر الوحي الذي صمد، وثبت قرونًا، وسيصمد قرونًا إثر قرون، ثم يميل تصديقًا أو تعاطفًا مع تلك الخرافات الهزيلة التي لا تثبت، ولا تصمد ولو برهة من الزمن، ثم قل لي بربك إذا كان ذلك النعيم قد ظهر كما يقول القصاصون عند قبر أناس متأخرين ممن هم على شاكلتنا في القصور والتقصير، والذين هم مهما كان فضلهم فهم أدنى بكثير من فضل رسول الله ﷺ بل من فضل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضوان الله عليهم، بل أدنى من فضل التابعين، وها هي قبورهم كلها طبيعية لا غرابة فيها، ولم نلمس شيئًا في دنيانا من (كشف) هذا النعيم، الذين هم أولى به من غيرهم.

وكذا الحال في العذاب المكشوف للدافنين، كل إنسان مهما كانت خطيئته فهو أخف من أبي لهب المشهود له بنص القرآن بالنار، وأبي جهل فرعون هذه الأمة، ومن قبلهما فرعون ذو الأوتاد الذي طغا في البلاد، ومع ذلك لم يلمس الأحياء شيئًا عند قبورهم، ولا حول رفاتهم أو رفات أي عتل جواظ مستكبر، فالمؤمنون أيقنوا بإيمانهم بالله وتصديقهم لوحيه أن أبا لهب في النار تصديقًا لوحي الله القائل: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ [المسد: ٣] دون أن يروا شيئًا من النار في مكان قبره، وأن فرعون وآله يعرضون على النار في الصباح والمساء: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦] دون أن يشاهدوا أو يشهدوا شيئًا حسيًّا من ذلك العذاب في المقابر المصرية القديمة، وهكذا.

لقد كانت معاناة أتباع الديانات السماوية الأخرى من الخرافة أشد وأنكى من حال المسلمين، فقد تعددت منابع الخرافة عندهم، وتعددت أشكالها تبعًا لمصادرها، ما جعل فيلسوفًا مرموقًا مثل (فرانسيس بيكون) يدرك حجم تلك المعضلة الفكرية عندهم، وينتفض على الخرافة، ويدعو بقوة إلى ضرورة التخلص من مجموعة (أصنام

الأوهام الخرافية) المحجرة للعقول، التي أطلق عليها اسم (أصنام العقل)، وحصرها في أربعة، وهي: أوهام القبيلة، وهي الميل إلى التعميم دون الالتفات للآراء المعارضة، وأوهام الكهف، وهي التي منشؤها الطبيعة الفردية لكل إنسان، وأوهام السوق الناشئة من الألفاظ وفق الحاجات والتصورات العامة، وأوهام المسرح، وهي المنبثقة مما تتبوءه النظريات المتوارثة من مقام ونفوذ[1].

ولا يحتاج الأمر سوى قليل من التفكير المركز ليدرك المرء من خلاله أنه مع وجود الوحي الواضح الميسر، فليس الإنسان في حاجة أبدًا إلى عالم الخرافة والقصص الموضوعة كي يدرك حقيقة ماضيه أو حاضره، أو يعلم ما سيواجهه في المستقبل، لقد أخبرنا الله بما يكفينا من تلك الأخبار والقصص النافعة، وفتح لنا مجالًا معرفيًّا بشريًّا يتسع مع الزمن بالعلوم النافعة التي يمكن للإنسان الوصول إليها، وكل ما زاد عن هذا الحد فلا اعتداد به؛ لأن الله لا يكلف النفس إلا وسعها، ولم يطلب منها شيئًا لا تطيقه، فمتى يصدق الإنسان مع نفسه، فيعترف بحجمه المحدود في كل شيء في الوجود، ويقف عند حدوده التي تلازم وجوده، وحينها سيقف على منصة السعادة الأبدية في حياته ومماته، علمًا أن قراره بالوقوف هنا لا معنى له؛ لأنه سيتوقف طوعًا أو كرهًا عند هذا الحد المعرفي لعجزه عن إدراك ما وراءه.

إن هذا الصراع الأبدي مع العقل وتلك التساؤلات التي يتوارثها بنو الإنسان جيلًا بعد جيل، منذ فجر تاريخ الإنسان، لن تصل إلى أي نتيجة ما دام هناك إعراض عن الوحي وعزوف عن تصديق خبر الخالق العالم بالأحوال كلها، واستبدال ذلك أحيانًا ببضاعة الخرافة الفاسدة الكاسدة، التي لن تنفع أصحابها ما داموا عازفين عن الوحي غارقين في الخرافة، الذي لا خيار عنه على الإطلاق، فلو تأمل العقلاء لوجدوا أن السؤال المطروح منذ القدم عن الوجود وأسراره هو السؤال نفسه الذي لا يزال يُطرح الآن في بداية الألفية الثالثة عن الأمر نفسه، بل وسيُطرح مستقبلًا بنفس النغمة والوتيرة النفسية، ومن دون الوحي ليس ثمة جواب على الإطلاق، إذ إن الإجابة من الوحي فقط، وليست من الخرافة، ولم ولن يستطيع أحد إدراك شيء من الغيبيات ماديًّا

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة، كرم، (مرجع سابق)، ص٤٧.

ولن يدركوا ذلك أبد الآبدين، وهم في الوقت نفسه يعترفون بأن هناك شيئًا عظيمًا يصعب إثباته، ويدركون أيضًا أن مسألة إنكاره أكثر وأكثر وأكثر صعوبة، فسبحان الله ما هذه الكبرياء العمياء، والعناد القاتل في رفض الحقيقة من هذا الإنسان المعاند العاجز، وصدق الله العظيم: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧].

*****

الحقيقة تأسر العقلاء

في مثل هذه المواقف الجدلية المعقدة يأتي دور العقل الراشد الذي يحمي صاحبه من التيه والضلال، والعقلاء فقط هم من يملكون الشجاعة الفكرية مع أنفسهم قبل الآخرين، ويتلمسون الحقيقة من مصادرها، وينبذون الخرافة، ويجاهدون أنفسهم للخلاص من الإنكار العائم الأعمى. والحقيقة الناصعة لا تستند في إثباتها إلى نظرة الأطراف الخارجية إليها، فهي حقيقة قائمة بذاتها، سواء آمن بها الناس أم رفضوها، ونستطيع القول بكل ثقة: إنه بعد تتبع تاريخ الإنسان وتلمس محاولاته للوصول إلى تفسير لوجوده والوجود حوله ومحاولة اختراق حاجز الغيب، فقد حصحص الحق، وظهر على الرغم من كيد الكائدين، لا نجاة من قدر الله إلا إلى الله وحده، ولا علم إلا بما يأذن به الله، لقد تغير نمط الفكر العالمي والفلسفة، فاستيقظ الإنسان بعد طول سبات وسوء استغلال، ومغامرات فكرية كانت بعض نتائجها وخيمة جدًّا.

فبسبب كارل ماركس، وأنجلز، ولينين، الذين فلسفوا الإلحاد سياسيًّا، ودعموه بالقوة المادية من ثاني أكبر قوة وجدت على وجه الأرض في القرن الماضي (الاتحاد السوفيتي سابقًا)، ولمدة سبعين عامًا، تحدث بسببها أكبر مظلمة سجلها التاريخ الفكري ضد بني الإنسان وعقولهم وفطرتهم، وذلك لما لاقته الشعوب من اضطهاد وقتل وتهجير وتشريد وإجبار على التخلي عن الدين الفطري وتبني الإلحاد بالقوة، وعلى الرغم من هذه القسوة فما تغير دين بحمد الله، وعبد الناس ربهم في الخنادق طيلة الكبت الحديدي السوفيتي، حتى انقرضت مشروعات الإلحاد، ودفنت مع جثث مروجيها زاهقة إلى

الأبد غير مأسوف عليها، ودفنت معهم الخرافة التي جعلتهم يتطرفون بكراهية الحق بالجملة كرد فعل عليها كما يزعمون، ولا يبقى في النهاية إلا الحق فقط: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨].

لم يتميز المفكر الألماني (إيموائيل كانت) عن المفكرين الغربيين، ولم يصبح سيد القرن الثامن عشر في أوروبا، ولم يطلقوا عليه لقب (شيخ المؤمنين) بوجود الله في عصره إلا بتقريره هذه الحقيقة من أن الغيبيات لا يمكن التوصل إليها بوسائل الإحساس التي تخضع لها الماديات، وعلى الرغم من أن بعض الشراح يصنفه من فئة (اللاأدرية)، إلا أنه يُعدّ أشهر من أشار بوضوح إلى أن الإنسان لا يولد بعقل خالٍ من المعرفة، أشبه ما يكون بالصحيفة البيضاء، ثم مع مرور الوقت تطبع عليه الحواس من المعلومات كي يشكل كامل فكره، لكنه أشار بقوة في كتابة (نقد العقل الخالص) إلى أن هناك أشياء فطرية أساسية تولد مع الإنسان، وكأنها أدوات أولية تتدرج بواسطتها الملاحظات بالاستدلال والاستقراء لتصل إلى الحقيقة دون أن تتصل بها مباشرة، إنه يشير إلى جزء من الفطرة التي يفطر عليها كل مولود.

لقد سبقه إلى ذلك أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام، ولا سواء بينهما، حين تدرج فطريًّا بتأمل المحسوسات تصاعديًّا، من الأصغر في عينه إلى الكبير فالأكبر، ثم توقف، من أجل تقرير البرهان الأكبر على من هو أكبر من كل شيء في ربوبية خالق الكون، فأشار إلى الكوكب الصغير أولًا كما يراه، ثم التفت إلى القمر المتوسط ثانيًا، ثم إلى الشمس الكبرى، فوجدها جميعًا تسير وفق قانون حركي دقيق، وكل متحرك في الوجود كان ساكنًا، وسينتهي إلى السكون، وأن وراء كل متحرك ما يحركه، وأن هذا تسلسل طويل سيشمل ما نراه، وما لا نراه مهما كبر حتى نصل إلى النهاية التي لا يمكن لمخلوق أن يحيط بها، لقد توقف النبي إبراهيم فجأة عن مواصلة هذا لتسلسل، وأعلنها صريحة مدوية أنه قد وجه وجهه للخالق واقفًا على حافة المسار الحسي البشري الذي أقفله نهائيًّا، بل انقفل عليه لوصوله إلى حد البشر من الاستيعاب الوجودي، واستبدل به نقلة مفاجئة ودون اتصال حسي مباشر، فقرر بموجب العقل والتأمل والإدراك القائم على الفطرة السليمة، وليس على التسلسل المادي العاجز من أن يقدم شيئًا في عالم متعاظم

لما فوق استيعابه، ووصل إلى النهاية بسرعه البرق، تلك النهاية التي ليس بعدها نهاية، وقرر القرار الفطري الحاسم الذي لا يمكن لأحد من الخلق تجاوزه طوعًا أو كرهًا، وكل ذلك ستجده مفصلًا في هذه الآيات الكريمات: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥- ٧٩].

هنا يا ابن آدم، فقط ستجد الطمأنينة الحقيقية في التصورات الصحيحة للوجود، فكن شجاعًا أمام الأوهام والخرافات والوساوس، وانتفض عليها كي تتغلب على كل عقبة واهية تعترضك عند اتخاذك مثل هذا القرار المصيري، يجب أن تقرر قبول هذه النتيجة الفطرية مع نفسك داخليًّا بكل أمانة، إنها الحقيقة المفصلية التي تقرر أن الله هو الرب ولا رب سواه، وهو الإله خالق كل شيء ولا إله سواه، وأنه الحي الباقي والخلق يموتون، وأنه الله القادر على كل شيء، وأنك أيها الإنسان، مخلوق على هامش هذا الوجود على الرغم مما تتصوره عن نفسك من تعاظم موهوم للذات، وأنك ضعيف لا تملك لنفسك نفعًا ولا ضرًّا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، وأن الله غني عن الخلق أجمعين بمن فيهم أنت وما تفكر فيه، وما تتخيله وتتصوره، وأنك في جميع أحوالك فقير إلى الله فقرًا مطلقًا يتجسد حقيقته وقت الشدة، وإن غفلت عن ذلك وقت الرخاء، وأن الله يعلم كل شيء، وأنت لا تعلم شيئًا إلا ما علمك الله، ومن أغرب سمات هذه الحقيقة أنها هي هي بذاتها وصفاتها قائمة سواء آمنت بها أو لم تؤمن، ولهذا ينفع الإنسان نفسه بالإيمان كما يضرها وحدها بالكفر، قال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ﴾ [يونس: ١٠٨].

هذه هي الحقيقة المفصلية الكبرى في معارك الفكر ومعتركات الجدل ومحاولات فهم الوجود، إنها الحقيقة المنهية لكل جدل عقيم لم يغنِ عمن كانوا قبلنا شيئًا، إنها المواجهة الصادقة مع الذات والاستسلام الطبيعي للقوة المطلقة وقبول الحق المبين،

المبني على الحقائق الثابتة، وليس على الخرافات الزائلة، هكذا يجب أن تكون يا عبد الله، في وجودك، وهكذا يكون الوجود من حولك، ولم تكلف إلا بما في وسعك اختياره وعمله، وقد ترك الله لك هذا النوع من الاختيار بنفسك، فإن آمنت بذلك وصدقت فذاك لك ولسعادتك في حياتك وبعد مماتك، وقد آمن الخلق من قبلك، وسيؤمنون بعدك، وإن أعرضت مختارًا فهذا شأنك أنت وحدك، لن تضل إلا نفسك ولن تضر غيرها، ولكن عليك أن تستعد للعاقبة، وألا تلوم غير نفسك حينها، علمًا أنه لن يكون لك مخرج ولا مهرب من هذه الحقيقة المحكمة حولك بأسوارها الشاهقة، فأنت محاط بمملكة الخالق وملكه وحده، لا مفر منه إلا إليه، وأما الله الخالق فقد جل في علاه عن كل شيء، وهو الغني عن العالمين أجمعين: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢- ٢٤].

*****

المعجزات والكرامات

المعجزات للأنبياء والكرامات للأولياء، ولا يعني ضرورة حدوث معجزة مع كل رسول أو نبي، ولا حدوث كرامة مع كل ولي أو تقي، ومن الخطأ أيضًا المبالغة في تفسير المعجزات أو الآيات تفسيرًا علميًّا تجريبيًّا جامدًا، وتقييدها بما توصل إليه العلم في عصر محدد؛ لأن العلم يتغير ويتطور مع الزمن، فيكون هذا الربط غير مناسب لآيات أنزلت لكي تكون صالحة لكل زمان ومكان، والمعجزات عادة ما تكون خارجة عن المألوف وفق نواميس مختلفة جدًّا، لكنها إذا وقعت تكون محسوسة، ولا تدرك عقلًا، ولا تبرهن منطقيًّا في الدنيا، ولا تخضع لقوانينها ونواميسها الطبيعة المعروفة، وإلا لما جاز وصفها بالمعجزة.

فالطير الأبابيل - مثلًا - وحجارتها القاتلة لتجعل الجسد البشري كالعصف المأكول، ليست طيورًا خاضعة لناموس الحياة الطبيعية للطيور المعروفة في حياتنا، بحيث نخضعها لحسابات الوزن وقوة الدفع والارتفاع والانخفاض والجاذبية، وكذا الحال في الإسراء والمعراج، لا يمكن فهمهما فيزيائيًّا أو بقانون الجاذبية أو الطرد المركزي أو بعلم الفلك، وسيكون موقفًا عفويًّا فطريًّا دون تكلف، كموقف أبي بكر الصديق رضي الله عنه هو الموقف الأسمى والأعدل تجاه كل خارقة عندما حدثوه بما يقوله النبي ﷺ من أنه أسري به ليلة البارحة، فما طلب برهانًا ولا دليلًا حسيًّا ولا عقليًّا، بل لجأ إلى الإيمان الأصلي عنده بقدرة الله على كل شيء، ونعم الملجأ هذا، فما زاد عن قوله: «**والله لئن كان قاله لقد صدق، وما يعجبكم من ذلك! فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار، فهذا أبعد مما تعجبون منه**»[1]، وكذا الحال مع انشقاق القمر، وانفلاق البحر لموسى، ومنطق الطير لسليمان، ونطق عيسى في المهد، وإحيائه الموتى، وبقية معجزات الأنبياء عليهم السلام جميعًا.

وإن تعجب فعجبٌ حرص الإنسان على طلب المعجزات، وهو في غنى عنها بفضل الله الذي برحمته بعباده يحيلهم إلى الإيمان بقدرته على إنزال المعجزات دون الانشغال بطلبها، حيث يترتب على حدوثها حساب أكبر، إذ لا يبقى عذر يتذرع به الجاحد بعد وقوعها، وهذا ما حدث مع قريش بعد أن طلبوا من النبي ﷺ أن ينزل عليهم (آية)، جاء الرد بتذكيرهم بالأهم، وهو قدرة الله على تنزيلها دون الاستجابه لمطلبهم: ﴿**وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [الأنعام: ٣٧] ثم أخبرهم الله بأنه من رحمته ألا يستجيب لهذا الطلب لثقل تبعاته عليهم: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩] إذ لو استجاب الله لهم لغلظ العقوبة على كفرهم، كما حدث مع بني إسرائيل عندما سألوا عيسى عليه السلام أن ينزل عليهم مائدة، فقالوا: ﴿يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٦٢-٦٣) وقال: (هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه) ووافقه الذهبي في تلخيصه على المستدرك.

مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [المائدة: ١١٢] اكتفى بتذكيرهم بالتقوى والإيمان أولًا: ﴿قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ١١٢] فلما أصروا على الطلب مبررين ذلك بقولهم: ﴿ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [المائدة: ١١٣] دعا عسى ربه لتحقيق طلبهم فضلًا من الله عليهم: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [المائدة: ١١٤] فاستجاب الله لطلبهم لأنه لا يعجزه شيء سبحانه، ولكن الإجابة جاءت مقرونة بوعيد أشد لمن كفر بعد ذلك: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المائدة: ١١٥].

*****